الصناعة الفخارية:

عرف المغاربة القدماء هذه الصناعة منذ فجر التاريخ، وتشهد على ذلك البقايا التي عثر عليها في القبور الميغاليتية وغيرها، ويرى كامبس أن ازدهار هذه الحرفة قد كان سابقا لقدوم الفينيقيين مشيرا لآنيات فخارية بالأوراس ، فكانت هذه الصناعة توفر وسائل تستخدم في الحياة اليومية، وقد شملت مختلف الأواني المنزلية وزينت بزخارف تشبه إلى حد كبير ما هو سائد اليوم في بعض المدن المغاربية منها منطقة الحضنة والقبائل والأوراس وجنوب تونس، كما نجد استخداما آخر للفخار في الأثاث الجنائزي، سمي بالفخار النذري تتجلى أهميته فقط في قيمته التعبدية.

أ- الصناعة الفخارية قبل الاحتلال الروماني:

ويمكن القول أن الصناعات الفخارية كانت مزدهرة جدا في قرطاجة والأراضي البونيقية، وانتشرت إلى خارجها عبر مختلف المناطق الإفريقية ، ونلاحظ أيضا أن سكان سواحل المغرب القديم (بعض المراكز البونيقية في الجزائر وخصوصا في المغرب الأقصى) قد تذوقوا المنتجات الإغريقية المستوردة منذ القرن السادس ق.م على الأقل، مما يدل على تطورهم الثقافي والحضاري بشكل كاف لتذوق هذه المنتجات، ليس هذا فقط بل سارعوا إلى تقليدها في فترات مبكرة جدا، وإن كان للقرطاجيين الدور الرئيسي في نشر هذه المنتجات بالسواحل الافريقية ، لكن هذا لم يمنع من أن تكون الحضارة المحلية (من نوميدية وموريطانية) مخصبة بالمؤثرات المتوسطية عموما والإغريقية خصوصا سواء في الصناعات الفخارية، أو غيرها.

غير أنه ابتداء من القرن الثاني قبل الميلاد أصبح الفخار الكامباني، الوافد الجديد على أسواق الفخار الافريقية، هو النمط المهيمن حيث انتشر بسرعة سواء في المناطق التي أصبحت تابعة للرومان (مقاطعة افريقيا بعد عام 146ق.م) أو المناطق الخارجة عن سيادتهم (مثل هيبون وسيرتا بنوميديا وفوليبيليس بموريطانيا)، لتهيمن روما على تجارة الفخار بشمال افريقيا بأكملها.

وعلى هذه الأنماط نجد تقسيمين معروفين للفخار الإفريقي القديم الأول لكامبس الذي قسمه لفخار عائلي موجه لمختلف الاستعمالات وخزف جنائزي ليس له سوى قيمته الطقوسية، وتقسيم عرف لدى غزال يقسمه حسب شكله من ناحية اللون والزخارف، حيث يشير إلى فخار غير مزخرف كالقدور والصحون والمصابيح، وفخار مصبوغ ومزخرف خاصة باللونين الأسود والأحمر.

وأقدم الاكتشافات للفخاريات هي لفخار جنائزي اكتشف في قبور المغاربة القدماء، سماها الآنية الخزفية الصغيرة Microcéramique والآنية الطقوسية التي ليس لها غير الأهمية الدينية ، يظهر عليها التأثير البونيقي بشكل واضح خاصة المكتشف قرب المدن بالمناطق الشرقية ، وعن وظيفه هذا الفخار فيمكن ذكر:

- أواني الطهي مثل القدور المختلفة والجفن، والطاجين والكسكاس، لونها رمادي داكن أو أسود مع عدم وجود زخارف عليها (وهو الطابع العام في الآنية المعدة لطهي الطعام) ، كما نجد من أنواعه الطواجين لإعداد الرقائق (الكسرة)، والكسكاس الذي كان إناء مخروطي الشكل بقاعدته ثقوب كثيرة يوضع فوق القدر، ويعتبر طعام أصيل في بلدان شمال افريقيا،

- أواني الأكل أي الصحون والأطباق التي تختلف من حيث الحجم والعمق وأشهرها المثرد، فكانت صناعتها بسيطة وقلما كانت تزخرف، وحتى الزخارف إن وجدت تكون بسيطة للغاية،وتقدم بها الأطعمة الجافة، ونجدها على عدة أشكال بعضها عميق بشكل مخروطي، والآخر ذو قاعدة مستوية وحافة أقل اتساعا، وتعتبر من أقدم الأشكال الفخارية المكتشفة، حيث استخرجت من المدافن البروتوتاريخية.

- أواني الشرب فنجد الفناجين والأقداح والأباريق والكؤوس، مزخرفة باللون الداكن أو الأسود رفقة اللون الأحمر، وتعتبر الأكثر عددا في اللقى الأثرية، وتعتبر من أنية المائدة الرئيسية تقدم بها الأطعمة السائلة التي يتم شربها مباشرة.

- أواني التخزين والنقل التي تتمثل في الجرار والأنفورات Amphores لنقل الزيت والنبيذ والزيتون المخلل والمرق والحبوب، وصنع المغاربة هذه الجرار وفق أنماط مستوردة إغريقية، بونيقية وإيطالية، لكن مع القرنين الأول والثاني ميلادي طوروا نماذج خاصة بهم تتمثل في النموذج الافريقي الأول والثاني يختلفان عن النماذج الأخرى في الشكل والسعة، وتطورت صناعتها لتصدر إلى خارج المغرب القديم حيث عثر على نماذج منها في ميناء أوستي Ostie تحمل ختم مدينة تيكلات Tubusuptu .

- المصابيح : كما نجد صناعات فخارية أخرى كالمصابيح التي تكون بلون رمادي أو داكن أو أسود، لا تزخرف عادة ، لها فتحة مركزية كبيرة ناحية الأعلى يصب من خلالها الزيت وفتحة أخرى أمامية توضع بها الفتيلة التي تمتص الزيت من الخزان حتى تبقى مشتعلة.

ويجدر بالذكر أننا نجد اختلافات بين الفخار الحضري المكتشف بالمدن، والفخار الريفي الذي كان يصنعه الفلاحين.

ب- الصناعة الفخارية خلال الفترة الرومانية:

مرت هذه الصناعة بمرحلتين تتمثل الأولى في الصناعة الأسرية حيث كانت المراكز السكنية، كان يصنع فيها بطريقة بسيطة باستخدام الأيدي وتحمى في النار، فيكون شكله غير متجانس ولا يحمل كثيرا من الإبداع الفني أو الزخارف، ومع تطور الإنتاج الزراعي وتنمية النشاط التجاري برزت الحاجة لتلبية الطلب المتزايد وبذلك دخلت هذه لصناعة مرحلتها الثانية وأصبحت ذات طابع تجاري منذ القرن الأول ميلادي، فظهرت ورشات كبيرة مثل ورشات تيديس (قرب قسنطينة) التي تعتبر من أهم مراكز هذه الصناعة، واشتهر فخار تيديس في كل الحوض المتوسط ، وسيدي ابراهيم (قرب شرشال) وتيكلات (بجاية) وسطيف، واستخدم الدولاب في تشكيل الواني والفرن للتجفيف .

وقد احتفظت هذه الصناعة بطابعها المحلي حتى احتكت بالصناعات الأجنبية ولذلك أخذت تقلده ولهذا أصبحت تشبه لحد كبير صناعة بلاد الغال واسبانيا، كما برزت مدن في هذا المجال وأهمها قرطاجة، وتوسعت قائمة الإنتاج لتشمل الأواني المنزلية والجرات والأمفورات والمصابيح والأختام وقنوات نقل المياه.

ورغم ازدهار الصناعة الفخارية إلا أننا إذانظرنا على قائمة ما كان يستورده المغرب القديم (خاصة من إيطاليا) من أواني فخارية، لكن ابتداء من القرن الثاني الميلادي أصبحت الولايات الافريقية الرومانية بتصدير كميات كبيرة من هذه الواني إلى مختلف أرجاء الإمبراطورية الرومانية، وهذا يدل أن الصناعة قد انتشرت وازدهرت لدرجة أنها لم تكتفي بتغطية الحاجات المحلية بل أخذت تنافس منتجات أقاليم المتوسط خاصة ايطاليا وغاليا.

كما نشير أيضا لازدهار حرفة صناعة الخزف خاصة خلال الفترة الرومانية، حيث كون الخزفيون فئة هامة في المدن، حتى أنه كان لهم أحياء يمارسون نشاطهم في ورشات ودكاكين متقاربة، إلا أن هذا كان له انعكاس سلبي تجلى في التخلي عن التفنن في هذه الصناعة من أجل إكثار من الكمية المنتجة الموجهة للبيع، مما جعل منتجات خزفية أجنبية (إغريقية خاصة) تصبح هي الواني الرفيعة للتزيين وللطبقة الثرية، وكانت سيرتا من أهم المناطق المصنعة للفخاريات إضافة لمنطقة قرطاجة.